مرحلة معالجة وتركيب المادة العلمية

إن ما يميز الطالب الجامعي والباحث الأكاديمي بصفة عامة هو تحكمه في منهجية البحث التي تمكنه من حسن جمع واستغلال وعرض المادة التي توفرت في الوثائق والمصادر والمراجع؛ والبحث العلمي الذي يبدأ من اختيار الموضوع وينتهي إلى عرض البحث وتحريره وضبط نتائجه، يمر عبر عدة مراحل، لعل أبرزها مرحلة معالجة المادة العلمية التي تم جمعها.

تعتبر هذه المرحلة من أصعب وأهم مراحل البحث في الدراسات التاريخية، حيث تتطلب تركيزا وجهدا عقليا، وتوظيفا لكل القدرات الذهنية وأدوات النقد، وعليها يتوقف حسن تقديم الوقائع التاريخية وتحليلها واستخلاص النتائج المناسبة؛ وعنوان هذه المرحلة الرئيسي هو: نقد وترتيب وتركيب للمادة المتوفرة؛ ولذلك فإن الباحث الكفء ليس مجرد جامع للمعلومات ومركبها بطريقة عشوائية، بل يجب أن يمر بسلسلة من عمليات النقد والمعالجة، ثم الترتيب والتركيب للوقائع والظواهر وفق شروط موضوعية ومنطقية، توصله للإجابة على إشكالية الدراسة والأسئلة المطروحة في ثنايا البحث.

تطرح هذه المحاضر إشكالية رئيسة تتمثل في كيف تسهل مرحلة المعالجة عملية الكتابة التاريخية؟ وما هي الشروط الأساسية لنجاح الباحث في هذه المرحلة؟

للإجابة على هذه الأسئلة تتعرض هذه المحاضرة للعناصر التالية:

- دور مرحلة معالجة المادة العلمية في الكتابة التاريخية.
- عمليات النقد والمعالجة.
- نتائج مرحلة معالجة المادة العلمية.

تهدف هذه المحاضرة إلى تعريف الطلبة والباحثين بمقتضيات هذه المرحلة وما تتطلبه من الدقة والحذر والجهد والصبر وتوفر الملكات الخاصة بمثل هذا العمل، مع ضرورة التأكيد على أن القراءة الواسعة والمتنوعة تعتبر أهم العوامل المساعدة في هذه المرحلة.

تعتبر هذه المرحلة من أصعب وأهم مراحل البحث، ورغم قصر مدتها الزمنية فإنها تتطلب تركيزا وجهدا عقليا، وتوظيفا لكل القدرات الذهنية وأدوات النقد، وعليها يتوقف حسن تقديم الوقائع التاريخية وتحليلها واستخلاص النتائج المناسبة؛ وعنوان هذه المرحلة الرئيسي هو: نقد وترتيب وتركيب للمادة المتوفرة.

بعد استكمال الباحث مرحلة جمع المادة العلمية يقوم بدراسة ما جمعه دراسة دقيقة ومتمعنة فصلا بفصل وعنصرا بعنصر حسب الخطة الأولية(شلبي، 79)، ثم تعدل الخطة إلى تصميم نهائي ملائم وعملي، يتلاءم مع المادة المتوفرة للباحث، والمادة المتوفرة ترتب وتوزع حسب الاحتياجات المطلوبة(أحمد شلبي،80)، وإذا كانت علمية وعملية تسهل عملية التحرير بطريقة منطقية وتسلسلية وواضحة؛ في هذه المرحلة يضبط الباحث خطته ضبطا نهائيا، وبقدر ما تكون مجزأة ومفصلة تسهل عليه عملية التحرير، ويتحقق ذلك بـــ:

- يجب أن يقوم الباحث بإعادة دراسة المادة دراسة دقيقة ويصنفها حسب المصادر، ويرتبها بدءا من المصدر الأول فالثاني فالثالث...الخ، وحتما ستظهر بعض الفراغات يملؤها الطالب بما توفر له من مادة حول العنصر أو الحدث من مصادر ومراجع أخرى.
- يمكن للباحث أن يستأنس بمجموعة من الأسئلة تساعده على ترتيب وتركيب المادة العلمية التي جمعها حول حادثة أو ظاهرة تاريخية (بمعنى عنصر من عناصر الخطة) وهي:
  + تحديد الحقيقة – الحادثة أو الظاهرة- المدروسة.
  + تحديد زمنها وتطورها.
  + تحديد أدوار التطور ومراحله.
  + إبراز عوامل التطور.
  + تحديد النتائج التطور وآثارها القريبة والبعيدة.

ويختزل بعض المؤرخين هذه الأسئلة في سؤالين اثنين مهمين هما: كيف؟ ولماذا؟

وباختصار على الباحث أن ينظم المادة العلمية التي توفرت لديه على النحو الذي يمكنه من أن يضعها في السياق التاريخي الملائم.
قد يصل التعديل إلي تحوير جزئي في عنوان البحث بالاتفاق مع المشرف واذا سمح الوقت بذلك، وهنا تتبع الاجراءات الادارية اللازمة.(شلبي، 80)
- تظهر مهارة الطالب وقدرته في ابراز الأفكار والمعطيات العلمية الجديدة أو المستقاة من مصادر جديدة ومدى فائدتها لموضوع البحث، ودحرجة المادة العلمية القديمة والثانوية إلى العناصر الفرعية أو التخلي عنها(شلبي 85-86). لان تكديس مادة غير ضرورية أو غير مناسبة يؤثر على قيمة البحث، وتلك المادة ضرورية لأبحاث أخرى، وذلك الطريق(جمع مادة اضافية) ضروري لثقافة الباحث وتكوينه.
- إن شخصية الباحث وخياله المبدع وسعة معارفه وعلمية تفكيره ودقته وحسه النقدي وقوة ملاحظته وقدراته المتنوعة هي الشروط الأساسية لنجاحه في هذه المرحلة خاصة وفي كل بحثه.
- تنتهي عملية التركيب إلى تكوين قطعة من المعرفة التاريخية المنظمة من حقائق جزئية.
- تصنيف الوقائع يكون زمنيا، جغرافيا، منطقيا، وموضوعيا وهي متداخلة.
- على الباحث أن يجمع خلال عملية التركيب أو البناء التاريخي العناصر المأخوذة من مصادر تاريخية متعددة، ويحاول أن يُكَون منها صورة عقلية تشابه الصورة الموجودة في ذهن شاهد العيان أو كاتب المصدر – الأصل التاريخي – ثم يقسم الباحث تلك الحقائق إلى مجموعات على أساس من التشابه القائم بينها.

إن ما يصل إليه الطالب بعد مرحلة التوثيق ليس الوقائع ذاتها كما حدثت ولكن مخلفاتها المادية والأدبية التي تركتها تلك الوثائق والنصوص، بمعنى أنه تم الوصول إلى معرفة تاريخية غير مباشرة، تنقصها سلسلة من العمليات النقدية للوثائق المكتوبة، وهي عملية صعبة لأنها ترتبط مباشرة بنفسية الإنسان، باعتبارها أثرا نفسيا رمزيا لا حسيا شخصيا كالمتاحف والعمران؛ وهي من أصعب العمليات لأن المصادر والمعلومات معرضة للتلف والتزوير بسبب قدمها أو تدخل الإنسان فيها، لهذا تطرح تساؤلات حول: أهمها، مدى موضوعية الوثيقة، ومدى تطابق مضمونها مع ما ورد في غيرها من الوثائق والمصادر.
- عملية النقد ضرورية للنصوص والوثائق حتى يتأكد الباحث من نسبتها لأصاحبها ومن صحة النص كما وصل إليه، والعملية تتركز خاصة على النقد بقسميه الباطني والظاهري.
- في عملية النقد يعتمد الباحث كثيرا على ظروف وثقافة وإيديولوجية المؤلف أو الراوي.
- تعتمد عملية النقد كذلك على "الموازنة" بين النصوص والأحداث الواردة في مختلف المصادر، فكلما تعددت مصادر الباحث حول الحدث والحقيقة التاريخية وفهم مغزاها وقيمتها، اتضحت له صورة الماضي أكثر.

ومرحلة المعالجة عموما تجنب الباحث مزالق عديدة أهمها:
التكرار في الموضوعات.
هذه الطريقة تجنبه تشويه الحقائق، لأن البدء في البحث من خلال فرضيات كثيرا ما يجعل المعالجة غير علمية.
إن القفز على هذه المرحلة يوقع الطالب في حلقة مفرغة، وتتراكم عليه الصعوبات في مرحلة التحرير.

إذن فعلى الباحث إتباع هذه المراحل بداية بالعثور على المصادر ثم استخراج المادة العلمية ثم معالجتها ودراستها وتنتهي إلى الكتابة التاريخية، وتقتضي هذه المسيرة الدقة والحذر والجهد والصبر وتوفر الملكات الخاصة بمثل هذا العمل.

نستنتج مما سبق أن الباحث الكفء ليس مجرد جامع للمعلومات ومركبها بطريقة عشوائية، بل يجب أن يمر بسلسلة من عمليات النقد والمعالجة، ثم الترتيب والتركيب للوقائع والظواهر وفق شروط موضوعية ومنطقية، توصله للإجابة على إشكالية الدراسة والأسئلة المطروحة في ثنايا البحث.
ملاحق:
كان المؤرخ والمربي الانكليزي اللورد أكتون John Dalberg-Acton يوصي طلابه في "كامبريدج": "ادرسوا مشكلات لا فترات زمنية".

يقول المؤرخ روبير هنري بوتيه R.H.Bautier: "يتوقف المؤرخ على أن يكون اركيلوجيا (باحث آثار) بالضرورة عندما تكون الحضارة التي يدرسها قد احتفظت بأرشيفات سلطتها العامة ...عندها يكتب التاريخ بطريقة علمية دون أن يعيد تركيبه معتمدا على الظن أو الاحتمال".
يقول المؤرخ الانكليزي كولنفود:"كل شيء في العالم يمكن أن يغدوا شاهدا على أية مسألة كانت".
العلم ليس هو دراسة المعلوم ولكن الكشف عن المجهول (مالك بن نبي)

مراجع

- قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي.
ناصر الدين سعيدوني، أساسيات منهجية التاريخ، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000.
- ليلى الصباغ، دراسة في منهجية البحث التاريخي.
- حسن عثمان، منهج البحث التاريخي.أحمد شلبي، كيف تكتب بحثا أو رسالة، دراسة منهجية لكتابة البحوث ورسائل الماجستير والدكتوراه، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، ط21، 1992